هاجس العظمة في شعر المتنبي

أ. إكرام بن سلامة
شعبة تحليل الخطاب،جامعة منتوري، قسنطينة

ملخص

يذهب معظم الدارسين إلى أن شعر المتنبي يتسم بمجموعة من الخصائص، لعل أبرزها خاصية القوة والعنفوان؛ التي تعكس نوعا من الشعور بالعظمة لديه. فما السر في ما يبدو من قوة في شعر المتنبي؟ وما هي أهم الوسائل التي استعملها للتعبير عن تلك العظمة؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبارها ظاهرة أسلوبية؟

وهذه الدراسة عبارة عن محاولة للإجابة عن بعض تلك الأسئلة.

Résumé

La plupart de ceux qui ont étudié la poésie d'Al-Mutanabbî sont unanimes sur des traits caractérisants son œuvre imbue de force et de vitalité qui reflètent un sentiment de grandeur. Cet aspect incite à connaître le secret de cette force et de l'excès de grandeur et à cerner les moyens par lesquels s'expriment et dans quelle mesure peut-on considérer cela comme phénomène stylistique? Cette étude est une approche par laquelle j'ai essayé d'apporter des réponses à de telles questions.

مجلة منتدى الأستاذ: المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية ،سطح المنصورة،25000، قسنطينة، الجزائر
الهاتف /الفاكس:98 29 62 31 (0) 213 00
e-mail :bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

يلاحظ عنفوان اللذين يعكسان شيئا من شخصية المتنبي، ويشكلان مؤشرا اسلوبيا ملفتا للانتباه.

ويتجلى هذا بوضوح في مدائحه . ومعظم ديوانه في المدح . التي يسيطر عليها ملمحان بارزان؛ يمكن اعتبار الأول منهما مدحا للذات، وقد عده الدارسون نرجسية لا يمكن نفيها عنه، وتبدو جلية في سعيه الحثيث وراء تحقيق طموحاته الكبيرة، و في ما استخدمه من أساليب شعرية حاول من خلالها رسم صورة للإنسان النموذج في صفاته وأفعاله وطريقة فهمه للحياة.

أما الملمح الثاني فهو الخاص بممدوحيه على تنوع شخصياتهم واختلاف أصولهم، ونخص منهم بالذكر هنا فارس بني حمدان سيف الدولة؛ الذي حمل له المتنبي إعجابا وتقديرا خاصين، كما سنرى.

وسنتعرض في هذا البحث لبعض النماذج التي خص بها المتنبي ممدوحيه ونفسه مسلطين الضوء على مواطن العظمة فيها، هذه المواطن التي ستبرز لنا بعضا من نظرة المتنبي لنفسه وللآخر.

- ✓ فما هي أهم تلك المظاهر على مستوى الذات؟
- ✓ وكيف تجلت على مستوى الممدوح؟
- ✓ وما هي أهم الوسائل التي أبرزتها؟

1. مظاهر العظمة على مستوى الذات

المتنبي شخصية فريدة في تاريخ أدبنا العربي، وخير ما يدل على تفرده هذا شعره، ولعل أول ما يتفرد به وما يميزه عن غيره من شعراء زمانه تعاظمه الشديد واعتداده بنفسه و شعوره بالتفوق، حتى ليخطر بأذهاننا أنه باعتداده هذا قد فاق كل البشر، أناسا عاديين كانوا أم ملوكا.

وأول ما يلفت النظر في شعره حبه للسيادة و احتقاره للغير و رغبته في مساواة نفسه بالملوك والأمراء، إذ كان يرى نفسه أشعر الشعراء، بل الشاعر الوحيد الذي يستحق شعره أن يسمع، يقول (غومث): " من الصعب أن نجد في الأدب العالمي كله شاعرا أشد اعتزازا بفنه من المتنبي" (01). أما غيره من الشعراء فهم أمامه كالظلال الباهتة التي لا يوليها اهتماما. وقد بلغ احتقار المتنبي لهم أنه لم يجبهم و لم يفكر فيهم

حين تعرضوا له و نالوا من عرضه، فكيف يجيبهم و هو الأرفع طبقة و هم كما يرى(2)

أرى المتشاعرين غروا بذمي ** ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض ** يجد مرا به الماء الزلالا

و يقول :(3)

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ** ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطق صامت عنه عادل ** و قلبي بصمتي ضاحك منه هازل

و يبلغ اعتداد المتنبي بنفسه أن يؤكد أن شعره لم يقل مثله قط، بل إن شعره كشمس تشرق لتغطي بضوئها كل ما قيل من شعر في زمانه أو قبله فيقول: (4)

لا تجسر الفصحاء تنشد هاهنا ** بيتا و لكني الهزبر الباسل
ما نال أهل الجاهلية كلهم ** شعري ولا سمعت بسحري بابل

ولا يقف عند هذا الحد بل يواصل متحدثا عن شعره، ذلك الشعر الذي رواه الدهر وحفظته الأزمان فيقول: (5)

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ** إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ** و غنى به من لا يغني مغردا
أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما ** بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني ** أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

بل إنه ذلك الشعر الذي حقق المعجزات وفعل فعْل السحر، باجتيازه للقدرات البشرية، فجعل الأعمى مبصرا وأسْمع الأصم بكلماته العجيبة وكأنها تعويذات فيقول مفاخرا بنفسه: (6)

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي و أسمعت كلماتي من به صمم**
أنام ملء جفوني عن شواردها ** و يسهر الخلق جراها و يختصم

ويواصل المتنبي افتخاره بشعره، و الإشادة به في كل فرصة فيقول: (7)

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله ** إذ القول قبل القائلين مقول
و ما لكلام الناس فيما يريبني ** أصول و لا لقائليه أصول
أعادى على ما يوجب الحب للفتى ** و أهدأ و الأفكار في تجول

يعلق الدكتور زكي العشماوي على هذه الأبيات فيقول: " وإذا كان غيره من القائلين لا يخرج عن المتعارف، فإنه يتفرد باختراع المعاني التي لم يسبق إليها غيره، وقد أدى هذا التفرد إلى كثرة حساده وأعدائه، يعادونه على فضله وعلمه وأدبه، وأنه ليعجب أشد العجب فهذه أمور كما يراها لا تستوجب سوى الحب، ولهذا فهو لا يهتم في كثير أو قليل بما يقوله أولئك الحاسدون، فقد تعود على هذا حتى إنه ليتركهم يختصمون في أمره ويتخاصمون " (8)

و لا يقف المتنبي عند الافتخار بشعره باعتباره السمة الأولى التي تميزه عن غيره من الناس، بل و ترفعه عن غيره من الشعراء السابقين واللاحقين – كما يرى – و إنما يفخر كذلك بفروسيته وطعانه في الحروب، حيث يمجد السيف على القلم فيقول: (**9**)

حتى رجعت و أقلامي قوائل لي ** المجد للسيف، ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به ** فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمَعْتني و دوائي ما أشرتِ به ** فإن غفلتُ فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته ** أجاب كل سؤال عن هل بلم

ويتمادى المتنبي أكثر في تصوير الفروسية فيقول على لسان أحد التنوخيين، ولا أظنه إلا متحدثا عن نفسه: (**10**)

أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء ** أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي ** أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد ** طويل القناة طويل السنان

حديد اللحاظ حديد الحفاظ ** حديد الحسام حديد الجنان

وحول فروسية المتنبي يختلف الدارسون، فمنهم من يثبتها له ومنهم من ينكرها عليه، ومن المؤكدين لها الدكتور زكي المحاسني، حيث يقول: " وأرى أن فروسية المتنبي هي التي كان لها أكبر نصيب في هذا الإعجاب لدى سيف الدولة، كان المتنبي فارسا، وقد اكتسب الفروسية من حياته البدوية التي عاشها في صباه. ... فاكتسب من البادية و التنقل فيها فروسية و شجاعة وفصاحة وما كان أهل البادية غير فرسان فصحاء ومحاربين " (11) و هذا ما يؤكده كذلك الشريف الرضي حين يقول " و أما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر" (12)

ويضيف زكي العشماوي: " يكشف شعر المتنبي حتى ذلك الذي قاله في صباه المبكر عن قيم فارس لا يصحب في غدواته وروحاته سوى ما يصحبه الأبطال الصناديد، من فرس متأهبة للقتال و السفر ومن عدة قتال وعتاد، ومن استعداد نفسي لخوض غمار الحرب، تقديسا لقيم البطولة والتضحية وكل معاني الفروسية " (13)

في حين نجد أن (بلاشير) ينكر عليه هذه الفروسية التي اكتسبها من صباه فيقول: " في حين أن تبجحه كان يثير السخرية، حتى إذا سمعت أقواله عن الحرب خيل للناس أن لا شيء يخيفه، مع أن بعض معاصريه يقول إنه لم تكن فيه عهدئذ (فروسية، وإنما كان سيف الدولة سلمه إلى النخاسين والرواد فعلموه الفروسية و الطراد و المثاقفة)" (14)

أما (إميليو غرسية غومث) فيقول:" لم يكن المجد الأدبي وحده مرمى طموح شاعرنا. كان يأمل أن يصنع مجدا سداه الأدب ولحمته أمجاد حربية يحققها بحد السيف، وخال نفسه كفؤا لكل الميادين " (15) وقد استشهد(غرسية) على كلامه هذا ببيت المتنبي:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني ** و السيف و الرمح و القرطاس و القلم

كما ذهب كذلك إلى تشبيهه بـ (دون كيشوته DON QUICHOTTE) ذلك الفارس الواهم الذي يرى أن العالم مليء بالظلم و أن عليه هو محاربته وتخليصه و هذا نفس رأي المتنبي في الزمن الذي يعيش فيه فيقول: (16)

أذاقني زمني بلوى شرقت بها ** لو ذاقها لبكى ما عاش و انتحبا
وإن عمرت جعلت الحرب والدة ** و السمهري أخا و المشرفي أبا
فالموت أعذر لي و الصبر أجمل بي ** و البر أوسع و الدنيا لمن غلبا

ونحن نميل إلى ترجيح الرأي الأول على الثاني، خاصة و أننا عرفنا عن المتنبي شجاعة وجرأة في ادعائه النبوة، و كيف أنه مات وهو يذود عن نفسه وممتلكاته، كما أننا لا نعتقد أن رجلا مثل أبي الطيب صاحب فارس بني حمدان في حروبه وغزواته و انتقل في الأمصار، واجتاز الفيافي، يجهل فنون القتال، هذا من جهة، و من جهة أخرى لا نعتقد أن كلامه عن الإقدام و الشجاعة والحرب، نابع عن جهل منه بكل هذه الأمور، وعلى كل حال، فإننا حتى لو افترضنا أنه لم يكن فارسا و أننا لا نستطيع الإجابة عن السؤال المطروح: هل هو فارس حقيقة أم فارس من صنع خيال المتنبي الشاعر؟ فهذا لا يهمنا كثيرا بقدر ما يهمنا الجانب الفني من شعره المتعلق بفروسيته.

ومن الأمور المهمة كذلك، التي تجلت فيها عظمة المتنبي، ما أشار إليه الدكتور زكي العشماوي في كتابه (قصيدة المديح عند المتنبي، وتطورها الفني) وهو علاقة المتنبي بالزمن أو الدهر. هذه الكلمة التي طالما تكررت في أبياته. فما هي علاقة المتنبي بالزمن، وكيف ينظر إليه، وماذا ينتظر منه؟ يقول العشماوي: "كان يطلب من الزمن مالا يستطيع الزمن نفسه بلوغه" (17) فطموحات المتنبي كانت أكبر بكثير من إمكانياته، ورغم ذلك فهو يجهل هذه الحقيقة أو بالأحرى يحاول تجاهلها، مع أنه هو القائل: (18)

إذا كانت النفوس كبارا ** تعبت في مرادها الأجسام

فهو إذن يعي جيدا أن عظائم الأمور تتطلب قدرة، و إمكانية لإنجازها، و إذا انعدمت هذه الإمكانيات و الوسائل، يتعب الفرد دون بلوغ مراده، كذلك الأمر في أماني النفوس إذا كانت كبيرة فهي تتعب الأجسام في تحقيقها هذا إن قدرت على ذلك. ورغم هذا نرى المتنبي يتحدى الزمن فيقول: (19)

أريد من زمني ذا أن يبلغني ** ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

ثم يثور عليه فيتوعده ويتمنى لو أنه كان شخصا ليقتص منه لأنه لا يبلغه مراده المرجو فيقول: (20)

ولو برز الزمان إلي شخصا * * لخضب شعر مفرقه حسامي

كما أن المتنبي عانى من زمنه الذي أذاقه الويلات، ورماه بالأرزاء، وحال دون تحقيق رغباته. (21)

رماني الدهر بالأرزاء حتى ** فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ** تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا ** لأنني ما انتفعت بأن أبالي

ولذلك يثور ويغضب على هذا الزمن المتلون الذي لا أمان فيه فيقول: (22)

قبحا لوجهك يا زمان فإنه ** وجه له في كل يوم برقع

وللمتنبي كذلك نظرة خاصة نحو ثنائية (الموت و الحياة)، حيث يرى أنه لا قيمة للحياة ولا قيمة لإنسان يحيا فيها دون أن يكون له طموح يبلغ به حد النجوم، وهذا الطموح يتطلب تضحيات، وحتى لو كانت هذه التضحيات تذهب بحياته. فللمتنبي رأي خاص في الموت حيث يقول: (23)

فطعم الموت في أمر صغير **كطعم الموت في أمر عظيم

و يوضح هذا البيت فيضيف: (24)

فموتي في الوغى أربى لأني ** رأيت العيش في أرب النفوس

فما دام يرى أن الموت هو نفسه، سواء أكان في أمر خطير أم في أمر حقير، فلماذا لا يغامر صوب المعالي، و يحتمل الخطوب، حتى لو لاقى حتفه فيها، فكل ما يشغل

تفكير المتنبي هو الغاية أولا، أما الوسيلة فتأتي في الدرجة الثانية، ولا يهتم كثيرا إن كانت ناجعة أم مهلكة، المهم في رأيه أنها توصله إلى غايته المنشودة .

فالموت قادم لا محالة ولكن ما يحز في نفس الإنسان هو هوان الدنيا، وما يحز أكثر في نفس المتنبي هو أن يموت دون بلوغ مطمح مرموق يرضي نفسه المتعطشة للعظمة. فالمتنبي يرفض الدونية، يرفض أن يكون دون الملك. فالموت أهون عنده من العجز و الجبن و التخاذل في سبيل الارتقاء و السمو: (25)

غير أن الفتى يلاقي المنايا ** كالحات و لا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي ** لعددنا أضلنا الشجعانا
و إذا لم يكن من الموت بد ** فمن العجز أن تكون جبانا

وفكرة الموت هذه التي تحمل لنا في طياتها خوفا، و تقودنا نحو آفاق يكتنفها الغموض، فتبعث فينا الرهبة و الخشية، لأن الإنسان بطبعه يخاف من المجهول؛ هذه الفكرة تبدو عند المتنبي الذي يتعامل معها برباطة جأش وهدوء، بسيطة لا تستحق أن يحسب لها أي حساب، حيث يقول: (26)

لا بد للإنسان من ضجعة ** لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه ** و ما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا ** نعاف ما لا بد من شربه

فهذه الأبيات تترجم لنا بوضوح فكرة الموت عند أبي الطيب، الذي يرى أن جميع الأحياء ينحدرون من أصلاب الأموات، ولذلك فإنه لا داعي للخوف من الموت، وكما أن الموت قوي، فالمتنبي كذلك قوي، فهو لا يخافه و لا يخشاه، وإنما هو مستعد له في هدوء كبير وشجاعة مفرطة.

وعلى كل حال فإننا نستشف من خلال الأبيات التي مرت معنا، أن المتنبي قد توصل إلى فكرة مفادها أن رغبة المرء في طلب المعالي و عظائم الأمور، تمر حتما بطريق تتوسطه الأشواك، وقد يتوسطه الموت في أحايين كثيرة، فلا بد من تكبد ضروب المعاناة في سبيل نيل الغاية المبتغاة، و الظفر بالسمو المرجو. وشعر المتنبي

يضم الكثير من الأبيات التي ترددت فيها هذه المعاني المشبعة بروح العظمة و الرفعة فمثلا يقول: (27)

لا يدرك المجد إلا سيد فطن ** لما يشق على السادات فعال

ويقول:(28)

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ** و تأتي على قدر الكرام المكارم

وعظمة المتنبي لا تتجلى فقط في هذه الأمور التي ذكرناها، و التي يختلف الأمر فيها من شخص لآخر، و إنما تتضح كذلك من خلال سلوكاته مع الآخرين وكيفية تعامله معهم، و قد سبق أن رأينا كيف كان المتنبي يتعامل مع الشعراء المعاصرين له، وكيف كان ينظر إلى من هم دون الملوك. أما الملوك فكان يعقد مقارنات بينه وبينهم ليشعرهم أو بالأحرى ليشعر نفسه بأنه لا فرق بينه وبينهم، فهما سيان، ولكن الفرق الوحيد هو أن الظروف كانت سانحة لهم ليصلوا إلى ما هم عليه، في حين أن هذه الظروف نفسها كانت معاكسة للمتنبي، فحرمته من حقه في الوصول، ولذلك كان يخاطبهم و كأنهم أصدقاء في المرتبة نفسها وليسوا أميرا و شاعره، ويتضح ذلك في معاتبته لسيف الدولة في القصيدة التي مطلعها:

وا حر قلباه ممن قلبه شبم ** ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وربما كان أقوى بيت فيها هو قوله:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ** بأنني خير من تسعى به قدم

ويعلق زكي العشماوي على هذه القصيدة فيقول:" في هذه القصيدة يبرز تعالي المتنبي واضحا و هو يجادل سيف الدولة و يحاوره، بل إنه يتطاول عليه و يعرّض به في أكثر من موضع و كأنه لا يكتفي بهذه الندية " (29)

ويبدو من كلام العشماوي أن المتنبي رغم ما يكنه من إعجاب و تقدير لسيف الدولة إلا أنه يرى نفسه ندا له، بل يمكن القول إنه يرى نفسه أفضل منه، لأنه كان واحدا ممن ضمهم المجلس والمتنبي خيرهم.

ومن النماذج السابقة يمكننا الخروج بملاحظة حول شعر المتنبي المتعلق بتعاليه وطموحه تحديدا، و تتمثل في تكرار ضمير المتكلم بصورة ملفتة، الأمر الذي جعل هذه الظاهرة محط أنظار الدارسين وتعليقاتهم.

ويقول عنها محمد مندور: "... هو يشعرنا بامتلاء الشاعر بنفسه وإيثاره للضمير (أنا) ضمير المتكلم الذي يستحضر قائله، الشاعر يفخر، و هل أبلغ في هذا من الضمير أنا و نحن و نا..." (30) وقد جاء قوله هذا تعليقا على بيت المتنبي: (31)

وإني لمن قوم كأن نفوسهم ** بها أنف أن تسكن اللحم و العظم

ويقول العشماوي: " يقترن الطموح عند المتنبي بالتعالي من خلال حس متضخم بالذات، فنقطة البداية عند المتنبي دائما هي ذاته، و من خلال حسه بهذه الذات يمزج المتنبي طموحاته التي لا تقف عند حد بتعاليه و كبريائه." (32)

ومن أمثلة ذلك قوله: (33)

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ ** ـباحث والنجل بعض من نجله
أنا الذي بين الإله به الـ ** ـأقدار والمرء حيثما جعله

وغيرها كثير.

2) هاجس العظمة على مستوى الممدوح

بدأت رحلة المديح مع المتنبي منذ بدايات قوله الشعر؛ هذا الشعر الذي يعد نتاجا صاغته الظروف السياسية والاجتماعية المتردية التي عايشها، والتي دفعت به إلى البحث عن شخصية تعيد للدولة العربية هيبتها ومكانتها التي اندثرت بين الأتراك والفرس، شخصية تجسد الخلال العربية الأصيلة التي فقدت في زمن اختلط فيه الحابل بالنابل، وقد استقى المتنبي هذه الصفات من التراث الشعري الذي حصل عليه من منابعه الأصيلة، من العرب البدو الأقحاح، الذين لم تفسد عليهم الحضارة الجديدة عقولهم و ألسنتهم فحفظوا للأمة العربية تاريخها المجيد، والمثل التي كانت تنشدها في عهد ازدهارها، مما دفع بالمتنبي إلى أن " يقارن بين هذه الصورة القديمة المشرقة، وبين

الصورة الحاضرة المظلمة من تسلط الأعاجم على الحكم، وسيطرتهم على الخلافة وخلعهم للخلفاء" (34)

ولد المتنبي إذن في ظل ظروف فقدت فيها الدولة العربية عروبتها الحقة، وخلالها التي جبلت عليها الشخصية الأصيلة. وقد تشبع منذ حداثة سنه بهذه الخلال فمجد المروءة والشهامة والشجاعة والكرم و البطولات التليدة، وغيرها من الصفات التي تميز أبطال الأمة العربية، بل فلنقل تكاد تميز كل عربي عاش قبل فترة اضمحلال العروبة، هذه الخلال التي تغنى بها الشعراء منذ بداية الشعر، إلى وقت المتنبي، استقرت في ذهنه، فراح يبحث عنها في الشخصيات التي استوقفته خلال رحلة مدحه، وأول هذه الشخصيات محمد بن عبيد الله العلوي ويصفه (بلاشير) بأنه كان برجوازيا ثريا جدا يقول فيه المتنبي: (35)

خير قريش أبا وأمجدها ** أكثرها نائلا وأجودها
أطعنها با لقنا أضربها ** بالسيف جحجاحها مسودها
أفرسها فارسا وأطولها ** باعا و مغوارها وسيدها

يعلق (بلاشير) على هذه الأبيات فيقول: " أما الغلو فإنه يبلغ حد الانتفاخ " وهو محق، لأن المتنبي لجأ في وصف ممدوحه إلى استخدام صيغة اسم التفضيل " أفعل" فقال: (أمجدها، أكثرها، أجودها، أطعنها، أضربها، أفرسها، أطولها...) والتي بموجبها يصبح ممدوحه الأفضل بين قومه، بعد أن بث فيه صورة العربي الرمز التي كان يتمثلها في ذهنه، إلا أن طه حسين يرى أن المتنبي " لا يمدح هذا العلوي رغبة في مدحه أو إخلاصا في حبه وحب العلويين، وإنما يمدحه ملتمسا لنواله يريد أن يستعين بهذا النوال على الرحيل من بغداد إلى الشام" (36) وقد يكون طه حسين محقا فيما ذهب إليه، لأن المتنبي سرعان ما ترك هذا الممدوح إلى وجهة أخرى.

كانت الشام هي المحطة الثانية التي استوقفت المتنبي، وفي منبج التقى الأمير (أبو المنتصر شجاع) فمدحه بقوله: (37)

أمريد مثل محمد في عصرنا ** لا تبلنا بطلاب مالا يلحق
لم يخلق الرحمن مثل محمد ** أحدا وظني أنه لا يخلق

يبدأ المتنبي كلامه بمدح قوم الممدوح، موظفا كعادته اسم التفضيل (أعز) ليؤكد علو مكانة القوم فيقول:

أما بنو أوس بن معن بن الرضى ** أعز من تحدى إليه الأينق
كبرت حول ديارهم لما بدت ** منها الشموس وليس فيها المشرق

ثم ينتقل المتنبي إلى الممدوح، فيعظمه ويرفعه عن البشر فيجعله واحدا لم يخلق الرحمن مثله ولن يخلق مثله. يعلق طه حسين على هذا البيت فيقول :"... فيه من المبالغة الفاحشة التي لا تصدر عن الفن الخالص أكثر مما تصدر عن فساد الرأي الديني عند الفتى، وتأثره بهذه القرمطية التي تتيح للناس أو لبعض الناس على الأقل من الرأي والقول والعمل ما لم يكن يستباح"(38)

أما شوقي ضيف فيرجع هذا الغلو لتشيعه حين يقول: "... وتتسع المبالغة عنده ونظن ظنا أنها جاءته من عقائد الشيعة في أئمتهم، وما كانوا يخلعونه عليهم من صفات إلهية وقد تحول بها عن فخره وحديثه عن نفسه ومديحه وحديثه عن غيره، وكأنه يظن ممدوحيه أنصاف آلهة "(39) فالعقائد إذن التي اعتنقها المتنبي من علوية، شيعية ثم قرمطية دخلت في تكوين صورة العظمة عنده، خاصة تلك التي أفردها لممدوحيه، فجعلهم متفردين في الصفات يفوقون الرجال العاديين، فممدوحه هو الرجل الكامل الذي خصه الله بخير الصفات دون غيره من رجال قومه.

وتأتي أخيرا هذه المرحلة التي طالما انتظرها المتنبي، وسعى إليها، وهي مرحة اتصاله بسيف الدولة الحمداني عن طريق ابن عمه أبي العشائر وقد مدحه المتنبي بقصيدة ميمية مطلعها: (40)

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ** بأن تُسْعدا و الدمع أشفاه ساجمه

يقول فيها:

على عاتق الملك الأغر نجاده ** وفي يد جبار السماوات قائمه
تحاربه الأعداء وهي عبيده ** وتدخر الأموال وهي غنائمه
ويستكبرون الدهر والدهر دونه ** ويستعظمون الموت والموت خادمه
وأن الذي سمى عليا لمنصف ** وأن الذي سماه سيفا لظالمه

ويعلق طه حسين على هذه القصيدة فيقول: " يبدو أن المتنبي قد بهر وراع وملأ القلوب والأسماع بهذه القصيدة الفذة"(41) فالمتنبي قد وجد في " علي بن حمدان الأمير العربي الذي ينشده، ورأى سيف الدولة في أحمد بن الحسين فتى أبيا أهلا لصداقته، وشاعرا مجيدا جديرا بتخليد مآثره" (42)

ويبدو أن المتنبي قد وجد في سيف الدولة الصورة النموذجية التي كان يبحث عنها، أو كما يقول شوقي ضيف وجد فيه رمز دولة العرب المفقودة، فنما في نفسه شعور الإعجاب بهذا الممدوح الذي اجتمعت فيه أنبل الخصال والتي يجملها لنا طه حسين في قوله: " كان سيف الدولة أميرا عربيا شريف الأصل، كريم النسب، جواد اليد، بعيد الهمة،... وكان سيف الدولة مجاهدا يناضل عن الإسلام ويحمي ثغور المسلمين من قبل الروم، و كان له مع هؤلاء مواقع حسن بلاؤه فيها، منتصرا ومنهزما... وكان سيف الدولة أميرا ينافس أمراء آخرين... وكان سيف الدولة صاحب دعابة ولهو وصاحب ترف ونعيم "(43)

فمن كل هذه الصفات وجد المتنبي مادته الخام، التي أعاد بفضل مقدرته الشعرية الفذة صياغتها في الصورة التي رآها أكثر مناسبة وتعظيما لممدوحه، ومن نماذج ذلك قوله:(44)

أنت الذي بجح الزمان بذكره ** وتزينت بحديثه الأسمار
وإذا تنكر فالفناء عقابه ** وإذا عفا فعطاؤه الأعمار
وله و إن وهب الملوك مواهب ** در الملوك لدرها أغبار
لله قلبك ما تخاف من الردى ** وتخاف أن يدنو إليك العار

فتحيد عن طبع الخلائق كله ** ويحيد عنك الجحفل الجرار

إن المتنبي لا يعظم ممدوحه فحسب، بل يرفعه إلى درجة الآلهة فالدهر دهره والزمان زمانه، له عليهما حق الطاعة والولاء والامتثال لأوامره والويل كل الويل إن عصياه أو تنكرا له، فعقابهما الفناء والهلاك، فهو فارس العرب العظيم وحسام الله ولواء دينه، ألم يقل فيه المتنبي:(45)

فأنت حسام الله والله ضارب ** وأنت لواء الدين والله عاقد

ثم إن سيف الدولة إلى جانب نسبه الأصيل حباه الله بأخلاق عالية، وخصال حميدة، جعلت منه رجل المتنبي الذي بحث عنه طويلا، فيقول في إحدى سيفيانه مشيدا بسعة كرمه وسخائه(46)

أرى كل ذي ملك إليك مصيره **كأنك بحر والملوك جداول
إذا أمطرت منهم ومنك سحائب ** فوابلهم طل وطلك وابل

فالممدوح صار بحرا تصب فيه كل جداول الملوك، فالملك قد يتصف بصفة ويفقد أخرى، أما سيف الدولة فجمع كل الصفات، وتربعت على عرش الخلال عنده صفة الكرم.

ويواصل المتنبي تعداد صفات ممدوحه الخارقة في موضع آخر فيقول: (47)

ومستكبر لم يعرف الله ساعة ** رأى سيفه في كفه فتشهدا
هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا ** على الدر واحذره إذا كان مزبدا
تظل ملوك الأرض خاشعة له ** تفارقه هلكى وتلقاه سجدا
وتحيي له المال الصوارم والقنا ** ويقتل ما تحيي التبسم والجدا
ذكي تظنيه طليعة عينه ** يرى قلبه في يومه ما ترى غدا
وصول إلى المستصعبات بخيله ** فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا
ولكن تفوق الناس رأيا وحكمة **كما فقتهم حالا ونفسا و محتدا

ولا يتوقف المتنبي عند أخلاق سيف الدولة، بل يتعداها إلى فروسيته وشجاعته وحنكته في تنظيم الجيش، و قوة جأشه، و غيرها من صفات الفارس العربي الذي يتمثله المتنبي ويصبو إلى إيجاده. و سجل سيف الدولة – كما نعلم – يزخر بالبطولات التي استغلها المتنبي أحسن استغلال، و أضفى عليها من ألوانه الخاصة ليبرز ممدوحه كمثل للقائد الفذ الذي لا يضاهى.

إن عاطفة الحب والإعجاب التي تختلج في جوانح المتنبي، والتي صورت له سيف الدولة على أنه إنسانه النموذجي؛ الذي كان يبحث عنه بصفاته وخلاله وأخلاقه وقيمه الأصيلة، تعدت عالم الواقع إلى عالم الخيال، وذلك من خلال حس متضخم بصورة الممدوح، هذا الذي أصبحنا نكن له نحن كذلك إعجابا خاصا، بفضل المتنبي الذي يقول فيه: (48)

يا مليك الورى المفرق محيا ** ومماتا فيهم وعزا وذلا
قلد الله دولة سيفها أنـ ** ـت حساما بالمكرمات محلى
فبه أغنت الموالي بـذلا ** وبه أفنت الأعادي قتـلا
أيها الباهر العقول فما تـد ** رك وصفا أتعبت فكري فمهلا

ويبدو أن عظمة الممدوح هنا قد فاقت كل تصور لدرجة أتعبت المتنبي نفسه، فلم تعد قريحته تسعفه، لأن سيف الدولة باهر بنفسه، وأي وصف سيظلمه وينقص من عظمته، لأنه: (49)

الشمس من حساده والنصر ** من قرنائه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خلاله ** من حسنه وإبائه و مضائه

إن هذا الذي اجتمعت فيه خلال، الحسن والإباء والشجاعة، يختلف عن بقية الناس، ولكن كيف يختلف وهذه الصفات يمكن أن تجتمع بذاتها في أي إنسان؟ إن ممدوح المتنبي قد تجاوز بهذه الصفات نفسها ما يمكن لأي بشر عادي بلوغه.

فسيف الدولة إذن فوق مستوى البشر فهو أحسن من الجميع، وما دام أحسنهم فهو مختلف عنهم، لذلك فهو لا يقارن بهم، فقد بلغ درجة من الرفعة والسمو تجعله في مقام الشمس بضيائها، والقمر ببهائه، والبحر بعمقه و شساعته، ليس هذا فحسب، بل أصبح هو الآمر الناهي فالموت عبده، والدهر خادمه، وقصائد المتنبي فيه تزخر بمثل هذه المقارنات.

قد تجاوز سيف الدولة مواصفات البشر العاديين، فصارت الشمس تأخذ منه الضياء، والبحر يأخذ منه الاتساع، والجبال لا تضاهيه في العلو والشموخ، كما صارت السماء سماءه والأرض أرضه، وكل ما تحويه فهو له، ولو عيب في سيف الدولة شيء لكان انتماؤه إلى البشر الضعاف الناقصين:(50)

أنت الذي لو يعاب في ملاء ** ما عيب إلا بأنه بشر

ولعل الخلاصة التي يمكننا الخروج بها من خلال ما تم استعراضه من نماذج، هي أن مظاهر العظمة قد تجلت عند المتنبي في ناحيتين يمكن أن نجمل أسبابهما وأهم ملامح صورهما ووسائل إخراجها في النقاط الآتية:

- ✓ كان عصر المتنبي ـ كما رأينا ـ عصر ترد وانحطاط للعنصر العربي، وكان المتنبي يتلظى غضبا ورفضا لهذا الواقع المزري، ولم يكن طبعه يسمح له بالرضوخ للأمر الواقع، وبقدر رغبته في التغيير كانت مبالغاته في تصوير عظمة من يأمل فيهم القيام بهذا التغيير، وكان يرى في نفسه القدرة على تغيير الأوضاع لو أمكنته الظروف من ذلك، كما كان يأمل في ممدوحه الأول (سيف الدولة) أن ينوب عن العرب في العودة بالأمة العربية إلى سالف مجدها، لأنه كان شديد الإيمان بكفاءة العرب وجدارتهم وأهليتهم لقيادة شعوب الأمة الإسلامية.

- ✓ وقد استعمل في التعبير عن عظمته الشخصية مجموعة من الوسائل يمكن اعتبارها انزياحا عن المألوف عند شعراء العربية قبله. منها تشبُّهه بالأنبياء حتى

لقب بالمتنبي، ومنها اعتماده على تضخيم ذاته بالإكثار من استعمال عبارة [أنا] التي تكررت في النماذج السابقة (18) ثماني عشرة مرة. أما اعتماده على ما يؤكد حضوره دائما؛ [كتاء الفاعل] (فعلتُ) و [ياء] النسبة للمتكلم (قولي) و(فعلي) فقد تكررت في النماذج المستشهد بها (53) ثلاثا وخمسين مرة. كما عمد إلى تضخيم ذاته عن طريق (النديّة) أو المثلية التي كان يحرص على إبرازها حين يمدح العظماء حتى لا يبدو أقل منهم شأنا، بل يعمد إلى تجاوزهم في بعض الأحيان كما رأينا في قوله:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ** بأنني خير من تسعى به قدم

فهو، هنا، لم يكتف بأن يكون واحدا من أعضاء المجلس، كما دلت عليه نون الجماعة في قوله: (مجلسنا) وإنما حرص على تمييز نفسه عنهم بعبارة (بأنني) وفضلها على الجميع بصيغة (خير) رغم علمه بأن سيف الدولة كان من بين من ضمهم ذلك المجلس.

✓ أما بالنسبة إلى الممدوح الذي يرى فيه أملا لخلاص الأمة فهو يعمد إلى إخراج أعماله وبطولاته في صور خارقة تجعله قريبا من أبطال الأساطير، وقد كان . بالإضافة إلى التشبيهات والاستعارات . يكثر في رسم صفاته من استعمال صيغ المبالغة والتفضيل مثل [أفْعَل] و[فَعيل] و[مِفْعال] التي تكررت في نماذجنا (23) ثلاثا وعشرين مرة، وكلها تعطي صفات الممدوح أبعادا لا يدركها غيره من أبناء البشر.

✓ ولا شك أن كل هذه المبالغات في المضامين، وكل هذه الأدوات والوسائل التي استخدمت للتعبير عنها تعد انزياحا وعدولا عن المعتاد، وتمثل ظاهرة أسلوبية لا تستطيع مثل هذه الدراسة الموجزة أن تفيها حقها، ولذلك فهي جديرة بأن تحظى ببحث موسع يتتبع أسبابها ويحيط بأهم نتائجها، وبالله التوفيقّ.

الهـوامـش والإحالات

1- غومث، إميليو غرسية. مع شعراء الأندلس والمتنبي.ط5.القاهرة: دار المعارف. ص 30
2- المتنبي. الديوان. بيروت: دار الجيل، ص141.
3- نفسه. ص 377.
4- نفسه. ص 180.
5- نفسه. ص 373.
6- نفسه. ص 332.
7- نفسه. ص 360.
8- العشماوي،أيمن محمد زكي. قصيدة المديح عند المتنبي و تطورها الفني.بيروت: دار البهجة العربية.1983م ص 56-57.
9- المتنبي. الديوان. ص497.
10- نفسه. ص 33.
11- المحاسني، زكي. شعر الحرب في أدب العرب- في العصرين الأموي و العباسي إلى عهد سيف الدولة- ط2،مصر: دار المعارف.1970م. ص 303
12- المرجع نفسه. ص 305.
13- العشماوي ،محمد زكي. المرجع السابق. ص 61.
14- بلاشير، ريجيس. أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي،ترجمة ابراهيم الكيلاني.الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.1975م. ص 96.
15- غومث، إميليو غرسية. المرجع السابق. ص 34.
16- المتنبي.الديوان. ص100.
17- العشماوي، زكي. المرجع السابق. ص 59.
18- المتنبي. الديوان. ص 261.
19- نفسه. ص 471.
20- نفسه. ص 51،
21- نفسه. ص 265.
22- نفسه. ص 493.
23- نفسه. ص 232.
24- نفسه. ص 56.
25- نفسه. ص 474.
26- نفسه. ص 557.

27- نفسه. ص 486.
28- نفسه. ص 385.
29- العشماوي، زكي. السابق. ص 58.
30- مندور، محمد. النقد المنهجي عند العرب. القاهرة: مطبعة نهضة مصر. 1972م . ص ص 270-271.
31- المتنبي.الديوان. ص 176.
32- العشماوي، زكي. السابق. ص 55.
33- المتنبي. الديوان. 248.
34- حسين، طه. مع المتنبي.ط2.القاهرة:دار المعارف.1980م. ص53
35- المتنبي. الديوان. ص 09.
36- حسين، طه. السابق. ص 53.
37- نفسه. ص 29.
38- نفسه. ص 74.
39- ضيف، شوقي. الفن ومذاهبه في الشعر العربي. ط6. القاهرة: دار المعارف، ص 305.
40- المتنبي. الديوان ص71.
41- نفسه. ص 256.
42- حسين، طه. السابق. ص256.
43- عزام، عبد الوهاب. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام .ط3.مصر:دار المعارف.1968ص 84.
44- حسين، طه. السابق. ص 172.
45- المتنبي. الديوان. ص 321.
46- نفسه. ص 376.
47- نفسه. ص 370.
48- نفسه. ص ص 407، 408.
49- نفسه. ص 352.
50- نفسه. ص 282.